السفير 11 حزيران 1999.

النزاعات الكيانية القومية في عالم الإسلام العثماني
هل هي "الخلفية التاريخية للحاضر" *

مراجعة: وجيه كوثراني

نموذج ألبانيا: البكتاشية والنهضة القومية: لا بد لدارس مشروع الدول الحديثة (أو بالاحرى المحدثه أو "الحادثة"، على حد ما كان يقوله ابن خلدون عندما كان يميّز بين الدولة ذات العصبية الغالبة أو "العامة" القديمة، وبين مشروع الدولة ذي العصبية "الممانعة" أو الخارجة في الأطراف)، أقول لا بد للدارس أن يعود لجذور نشأة تلك الدول الحادثة التي انبثقت عن عالم السلطنة العثمانية ليفهم أبعاد ما تعيشه مجتمعات هذه الدول اليوم من أزمات وحروب أهلية أو إقليمية. ولعل هذا ما يفعله المؤرخ الأستاذ الجامعي د. عبد الرؤوف سنو عندما يتصدى لدراسة ما يسميه في عنوان كتابه "النزعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية 1877- 1881" ليجعل منها "خلفية تاريخية" – على حد تعبيره لكثير من الأحداث السياسة والتطورات الراهنة".

يختار عبد الرؤوف سنو أربعة نماذج إقليمية: بلاد لاشام، الحجاز، كردستان، ألبانيا، ليدرس "النزعات الكيانية" فيها في مرحلة الحرب الروسية – العثمانية وتداعيات هذه الأخيرة، ثم يختار "صفة إسلامية" لتلك النزعات السياسية- الثقافية والفكرية، باعتبارها حدثت في مجتمعات ذات انتماء سكاني إسلامي سائد، أو ذات توجهات فكرية وثقافية صدرت عن نخب مسلمة مارست الثاقفة الإسلامية تأثيراً معيناً في تعبيراتها القومية الاستقلالية. وكما كان حال النخب الألبانية المسلمة التي يدرس عبد الرؤوف سنو بعضاً من خطابها الفكري – السياسي، ومدى تأثير "البكتاشية" فيها. ومن المعروف أن البكتاشية هي الطريقة الصوفية التي شاعت بين الإنكشارية، بل كانت الإطار المنظم والوعاء الإيديولوجي لفرقها وأساليبها التعبوية.

يلتقط عبد الرؤوف سنو، من خلال قراءاته للإدب السياسي الوطني الألباني المعروض أو المستشهد به في مراجع إنكليزية وفرنسية وألمانية، علاقة حميمة بين صور الآداب الشعبية المستوحاة من تراث "الفداء" في الإسلام، ودعوات اليقظة الألبانية الحديثة الداعية لاستقلال ألبانيا وتوحيد ولايتها- بما فيها ولاية كوسوفو، إحدى الولايات العثمانية الأربع في ألبانيا (**) وجمع كلمة المسلمين والمسيحيين في كيان وطني وتعزيز اللغة الألبانية فيها.

اللافت هنا، ما يذكره سنو حول تأثير شعراء وأسرة "فراشر"، لا سيما نعيم فراشر في "تحويل الفكر البكتاشي حول التآخي والليبرالية إلى وسيلة فعالة للإنضهار الوطني والتعايش الإسلامي – المسيحي". بل اللافت أيضاً أن الفكر البكتاشي – وهو في أساسه طريقة صوفية، كان يستوحي الأدب الشعبي المغروس بعمق في وجدان الطرق الصوفية. يقول المؤلف: "يحتوي الأدب الإسلامي الوطني على ثلاث ملاحم شعرية ضخمة حول "كربلاء: "الحديقة"، لداليب فراشر من

56 ألف بيت، و"مختارنامه" (نسبة إلى المختار الذي خرج من الكوفة تحت شعار "الثأر للحسين" من 21 ألف بيت، و"كربلاء" لنعيم فراشر، تؤكد جميعها على حضور كربلاء في أدب النهضة القومية الألبانية، حيث تستلهم منه صفحات نضالية وتجعلها مثالاً لمعنى الاستشهاد لإجل القضية" (ص 146).

مثل هذه الإشارات القيمة التي يوردها سنو في فصل "القومية الألبانية، تطل على مسائل إشكاليات معرفية كان يمكن أن تفتح آفاقاً واسعة للبحث عن "الجذور"، ولكن أيضاً للبحث في آليات الفكر السياسي الألباني النهضوي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وعن مدى علاقته بأدبيات النهضة في كل من مصر وبلاد الشام.

أسئلة كثيرة تثيرها قراءة تلك "الإشارات" عند سنو:
*الخلفية البكتاشية ذات البعد الصوفي والحاملة ضمنياً لفكرة الخلاص أو الفداء تبرز في نصوص الشعراء الألبان كطاقة استنهاض حديثثة وكإطار لاستيعاب اختلاف الإديان في المجتمع الألباني؟ كيف ولماذا!
*يقول نعيم فراشر "إن البكتاشيين الحقيقيين يحترمون الإنسان لأي دين إنتمى ويعتبرونه آخاً لهم وليس غريباً عنهم (...) وإن البكتاشيين يحبون بقية المسلمين والمسيحيين كأنفسهم، وهم يتفقون مع الجميع، ولكنهم يحبون وطنهم وأمتهم قبل أي آخر..." (ص 148)
*هل يعبر هذا القول، وهو إيديولوجي- دُعوي في وظيفته آنذاك، عن مجرد "إعلان إيديولوجي" ظرفي، أم عن ثقافة خاصة للبكتاشية تضرب جذورها في بعدين أو عمقين متقاطعين؟

أرجح أن هذين البعدين ينتظمان في الفرضية التالية: - البعد الصوفي الذي قلما يقف عند معيار مذهبية الفقه وضوابطه وحدوده وأحكامه، - والبعد الإثني المتمثل بالنزوع نحو قومية متميزة عن قوميات الأتراك والسلاف واليونان، وهي القومية الأليرية التي تملك وفقاً لنظريتها لغة خاصة وحضارة خاصة.

لقد حاولت النخب الألبانية القومية أن تبدع أدباً قومياً يستلهم منبعين: النبع التطهري الفدائي من الثقافة الإسلامية الصوفية المتقاطعة مع التراث الشعبي، والمنبع الإثني (العر ق واللغة والذاكرة الجمعية)، وخاصة الذاكرة الجمعية المتكونة من الدور التاريخي الكبير الذي قام به الفرسان الألبان الشبان منذ القرن الخامس عشر في نظام الدوشرمة العثماني وفي فرق الإنكشارية- البكتاشية، القوة الضاربة للسلطان العثماني "الفاتح".

هل اندمجت الثقافة الصوفية- العرفانية (ثقافة الطريقة) في الذاكرة الجمعية لدور الألبان القديم في بناء الدولة العثمانية؟ سؤال لا يطرحه الصديق عبد الرؤوف سنو. لكن إشاراته لمعلومات قيمة يستقيها من كتب متخصصة حول أدب النهضة القومية الألبانية المتأثر "بالكتاشية"، تفتح على مثل تلك التساؤلات بغية مزيد من فهم طبيعة الأفكار والذهنيات ومسار تكونها التاريخي.

نتذكر هنا أن محمد علي باشا كان "ألبانيا" أو من"أصل ألباني"، وجاء إلى مصر في العام 1805، إثر انسحاب الجيش الفرنسي "ضابطاً عثمانياً". فما معنى هذه "الألبانية" الوافدة إلى مصر، والتي سيُنظر إليها لاحقاً كأول محاولة من محاولات النهوض والتحديث العربيين – بل أن قومين عرب يؤرخون لها- "كأول حركة قومية عربية"؟

يرى سنو في استنتاجاته "أن محاولة محمد علي باشا، والي مصر، إقامة دولة موحدة من مصر وبلاد الشام، تبقى حركة إسلامية نخبوية لشخصية عثمانية (والي) ولا يمكن اعتبارها حركة إسلامية، بسبب نزعته العلمانية ومعارضة النخب والقاعدة العثمانية مشروعه الانفصالي" (ص 173).

نلاحظ هنا الكثير من التسرع والتصميم في مثل هذا التوصيف الذي تحمله العبارات التالية: (نخبوية، علمانية، حركة إسلامية أو غير إسلامية، معارضة القاعدة الإسلامية).

وإذ لا مجال هنا لمناقشة هذه المصطلحات ورؤية مدى انطباقها على السياق التاريخي، لا سيما وأن المؤلف أفرد كتابه لمتابعة سيناريو ما يسميه "القوميات الإسلامية" إبان الحرب الروسية – العثمانية، فإننا نكتفي بالتنويه بالجهد التوليفي الذي بذله المؤرخ بنجاح في محاولة ربط أربع حركات "كيانية" قومية – إقليمية بحدث كبير هزّ دعائم الدولة العثمانية وسرّع مسار "المسألة الشرقية"، أو بالاحرى، سرّع مسار تحقيق السياسات والاستراتيجيات الأوروبية في الجغرافية السياسية العثمانية. كما ننوه بالجهد البحثي المقارن بين مشاهد "الحركات" التي يراها في تحركات المسلمين ونخبهم إبان الحرب الروسية – العثمانية: "فمن بلاد الشام إلى ألبانيا، كانت هناك قواسم مشتركة وراء تحركات القوميات الإسلامية، الاحتجاج على فساد الإدارة العثمانية والمطالبة بإصلاحات تبرز الهوية المحلية. وقد عجل بظهورها وتزامنها الإحساس بالخطر الأجنبي واحتمال انهيار السلطنة العثمانية وتقاسم ممتلكاتها بين الدول الاستعمارية" (ص 173).

هذا، على أن هناك خصوصيات كما يلاحظها سنو، تقوم بين تلك التحركات القومية. فمن الوظيفة "الاحترازية" التي ميّزت حركة الأعيان في بلاد الشام، إلى الصفة العفوية للإنتفاضة الكردية ذي التركيب القبلي – الاقتطاعي والتي كانت أشبه برد فعل على تحركات الأرمن، ما لبث أن استوعبه السلطان عبد الحميد كرديف لسياسته ، إلى التوصيف البدوي للمجتمع الحجازي الباحث – وفقاً لرأي المؤلف – عن "خلافة عربية" لا تتوفر فيها عناصر القومية، وصولاً إلى اعتبار "الحركة الألبانية" وحدها حركة توفرت فيها عناصر "اليقظة القومية". يقول: "تكمن أهمية الحركة القومية الألبانية – أن غالبية الألبانيين تكلموا لأول مرة بصوت واحد، رغم تعدد أديانهم ومناطقهم الجغرافية والإدارية رافضين أن يظلوا مجرد تعبير جغرافي. ولهذا السبب، رفضوا البقاء تحت السيادة العثمانية المباشرة، بعدما حصلت الكيانات المسيحية المجاورة على استقلالها" (ص 177).

ولعل هذا ما يفسر ذلك "الالتباس" في الحركة القومية الألبانية، بين الانشداد لذاكرة الأجداد في بناء وخدمة الدولة العثمانية (صدور عظام، الجيش، الإدارة، المهندسون...) وبين النزوع الاستقلالي الذاتي الذي ميّز الحركات البلقانية.

لا شك في أن الاستقلالات الصربية واليونانية المبكرة كانت حافزاً وراء ذلك النزوع، ولا شك أيضاً أن مقررات سان ستيفانو ومعاهدة برلين التي دعت إلى ضم مناطق ألبانية مسلمة (مناطق ايبرا وتساليا) إلى اليونان، كانت مستدعية لموقف وطني إلباني موحد رافض. لكن سنو يستدرك: "لعب العامل الديني وارتباط المصالح مع الدولة العثمانية دوراً رئيسياً في رفض مسلمي

أيبرا دعوة اليونان للاتحاد". فقد خشي هؤلاء أن يخسروا امتيازاتهم التي تمتعوا بها في ظل الدولة العثمانية كمسلمين ويصبحوا أقلية دينية في حال اتحادهم مع اليونان" (ص 159).

غير أنه في ظل موازين القوى الدولية، كان على السلطان العثمانية (عبد الحميد الثاني) أن يقبل بمقررات معاهدة برلين بشأن ألبانيا، أي بتعبير سنو "بالنظام الإقليمي الجديد، التخلي عن المناطق المطالب بها لليونان وللجبل الأسود. كانت هذه مأساة الانتفاضة الألبانية الواقعة بين التخلي العثماني من جهة، ومنطق القوة الأوروبي (الروسي في الحالة المدروسة) من جهة ثانية.

وتبقى "الثقافة البكتاشية"التي أشار لها سنو، كعنصر من عناصر تكوين الحركة القومية الألبانية الناشطة، والتي كانت وفقاً لدراسة سنو، وهو محق في ذلك، أكثر وعياً سياسياً وأكثر دينامية ثقافية، من الحركات المماثلة والمزامنة لها، تبقى مسألة مفتوحة على البحث والحفر والتنقيب لإجلاء "الملتبس" في التاريخ.

لقد دمر الإصلاح العثماني (الرسمي) تنظيم الانكشارية وتعبيرها الطرقي الديني (البكتاشية) التي تحولت إلى حالة جمود وفساد وانحطاط في تركيا والمشرق في القرن الثامن عشر. والمفارقة التاريخية أن تتحول البكتاشية إلى حافز نحو حركة نهضوية حديثة في ألبانيا، بعد القضاء عليها في استانبول عام 1826 على يد السلطان الإصلاحي محمود.

مرة أخرى، أتساءل عن خلفيات هذه المفارقة في وظيفة الطريقة البكتاشية في مكانين وثقافتين مختلفتين. (وظيفتها في تركيا والمشرق من جهة، وفي ألبانيا من جهة أخرى). لا شك أن الذاكرات الجمعية تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان. من هنا، تأتي أهمية نبش "الجذور"، ولكن ليس لتفسير التاريخ الراهن على أساسها وصورتها، بل لتبيان "المختلف" وإيضاح الملتبس فيها، ورؤية الفصل والوصل معاً بين معطيات الماضي ومستجدات الحاضر.

كتاب عبد الرؤوف سنو يطرح الكثير من التساؤلات، لا سيما في الفصل الأهم في رأيي، وهو الفصل المتعلق بألبانيا.إنه كتاب يطمح أن ينبش "الجذور" انطلاقاً من حدث دولي (الحرب الروسية – العثمانية) التي سمحت برؤية تلك المشاهد من التحركات في عالم الإسلام العثماني. لكن هذه التحركات تبقى مشدودة إلى حركية مجتمعات وثقافات بعينها، أي تاريخ اجتماعي، كنت أتمنى أن يحتل حيزاً أكبر من الجهد في الحفر عن الجذور السياسية في نظام العلاقات الدولية والإقليمية (الجديد)، والذي يبدو أن تأسس فعلاً عبر مؤتمر فيينا (1815) أوروبياً، وعبر مؤتمر برلين (1878) أوروبياً – عثمانياً، والذي لا يزال يتضاعف بتداعياته ومحطاته حتى اليوم.

<u>هوامش</u>

*سؤال طُرح من خلال لمراجعة كتاب د. عبد الرؤوف سنّو، النزعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية 1877- 1881، بلاد الشام، الحجاز، كردستان، ألبانيا، منشورات بيسان 1998.

**الولايات الأربع هي: سكودرا، موناستير، كوسوفر، ويانينا. أعلن استقلال ألبانيا عام 1912، بعد أن حُجمت مساحتها، إذ احتلت مملكة صربيا إقليم كوسوفو، واقتُطعت أجزاء من ألبانيا لتُضم إلى اليونان ومكدونيا والجبل الأسود. وحصل أن "أقرت عصبة الأمم ثم هيئة الأمم لصربيا بسيطرتها على كوسوفو، وعندما تحولت صربيا إلى

يوغوسلافيا، كان الإقليم قد تكرست تبعيته لليوغسلاف. وفي ظل الأنظمة اليوغوسلافية السابقة، منعت اللغة الألبانية من الاستخدام كما مورست سياسة تمييز ديني وعنصري على مسلمي كوسوفو، حتى انفجار الاتحاد اليوغوسلافي مؤخراً، فبرزت إلى المسرح كل هذه "الخلفيات التاريخية" الكامنة. راجع مقالة محمد سلامة الذينبات، النشرة، عمان شتاء 1999.